

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

شَارِكْ مَا بَيْنَكَ

عبد الحميد جودة السحار

انتصر شارل مارتل على الجيوش العربية المتدفقة للاستيلاء على أوربة ، فى المعركة التى دارت بقرب « تور » ، وانتهت بقرب بواتيه ، وسقط عبد الرحمن الغافقى أمير الجيوش العربية صريعا ، وانسحب الجيش العربى من فرنسا إلى البيرانية ، مدمراً كل ما مر به .

شد ذلك النصر أزر المسيحيين ، وشحد عزائمهم ، وجعلهم يعتقدون أن الله صار يؤيدهم ، إذ دب الوهن فى صفوف المسلمين ، وراح الصالحون منهم يقولون : إن ما نزل بهم من هزيمة ،

إِنَّمَا كَانَ غَضَبًا مِنَ اللَّهِ ، لِمَا اقْتَرَفُوا مِنْ ذُنُوبٍ ،
وَلَأَنَّهُمْ اشْتَرَوْا الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ .

وَبَلَغَ خَبْرُ هَذِهِ الْهَزِيمَةِ قُرْطُبَةَ ، فَحَزَنَ النَّاسُ حُزْنًا
شَدِيدًا ، وَارْتَدُّوا السَّوَادَ ، وَبَعَثَ أَمِيرُ قُرْطُبَةَ بِنِيًا
هَزِيمَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي بِلَاطِ الشُّهَدَاءِ ، إِلَى الْقَيْرَوَانِ ،
وَالِى دِمَشْقَ ، فَامْتَلَأَ صَدْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حُزْنًا وَأَسَى ،
وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَغْسِلَ عَارَ الْهَزِيمَةِ ، فَأَرْسَلَ عَبْدَ الْمَلِكِ
ابْنَ قُطْنِ الْفِهْرِيِّ أَمِيرًا عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَجَهَّزَ مَعَهُ
جَيْشًا ، وَأَمَرَهُ بِالْأَخْذِ بِثَارِ الْمُسْلِمِينَ .

انْطَلَقَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَرَاحَ يَخْطُبُ فِي
النَّاسِ ، يُذَكِّرُهُمْ بِأَفْضَلِ مَا فِيهِمْ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى
الْجِهَادِ . ثُمَّ سَارَ بِالنَّاسِ إِلَى كِتَالُونِيَا وَأَرَاغُونِ
وَنَافَارَ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَى بِلَادِ اللَّغْدُونِ ، وَحَصَّنَ الْمَدْنَ

التي كانت في أيدي المسلمين ؛ ولكنَّ شارلَ مارتِلَ
لم يخفَ لِقَتَالِهِ ، فقد كان مشغولاً ببسطِ سُلْطَتِهِ على
بُرْغُونِيَّةٍ ، وعلى مُقَاطَعَةِ لِيُونِ ، حيثُ كان المسلمونَ
قد شَنُّوا الغارات ، وأَوْقَعُوا الرُّعْبَ في قُلُوبِ
النَّاسِ .

اتَّفَقَ يَوْسُفُ أَمِيرُ أَرْبُونَةَ الْعَرَبِيِّ ، مَعَ مُورُونْدَ دُوقِ
 مَرْسِيلِيَا ، وَزَحَفَ الْمُسْلِمُونَ بِجَيْشِ جَرَّارٍ ، وَعَبَرُوا
 نَهْرَ الرُّونِ ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى مَدِينَةِ « آرَل » ، ثُمَّ
 تَقَدَّمُوا إِلَى أَوَاسِطِ بِلَادِ الْبُرُوفَانِسِ ، وَحَاصَرُوا مَدِينَةَ
 سَانِ رَيْمِي ، وَاسْتَوْلُوا عَلَيْهَا ، وَتَدَفَّقُوا كَالسَّيْلِ
 الْجَارِفِ صَوْبَ « أَفِينِيون » .

وَهَبَّ سَكَّانُ « أَفِينِيون » لَصَدِّ هُجُومِ الْجَيْشِ
 الْإِسْلَامِيِّ ، وَلَكِنْ تَكَسَّرَتْ مَقَاوِمُهُمْ أَمَامَ تِيَارِ
 الْمُسْلِمِينَ الْمُتَدَفِّقِ ، وَانْسَحَبُوا مِنْ مُمْرٍ « دُورَانِس »
 وَوَقَعَتْ « أَفِينِيون » ، الَّتِي شِيدَ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدَ
 قَصْرِ الْبَابَوَاتِ ، فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .

ومات « أود » دوق أكتيانيا ، وعدو شارل
مارتل اللدود ، فانقضَّ شارل مارتل على بلاده ،
واستولى عليها ، وبذلك ازداد شارل قوة على قوة ،
وبات يتحين الفرص لقتال العرب ، الذين يهدّدون
بلاده ، والذين يتطلّعون إلى وضع أيديهم على أوربة
بأسرها .

٣

انتصر الأمير عبد الملك بن قطن الفهرى فى
فرنسا ، واستولى على المدن التى شنّ الغارة عليها ،
ثم عاد إلى جبال البيرانية ، لتأديب الأهالى الذين
أعلنوا عصيانهم . راح عبد الملك يُقاتل فى الجبال
قتال الأبطال ، وإذا بالسّماء تتلبّد ، وإذا بالأمطار

تهطل ، وإذا بالرياح تعصف ، فلم يحتمل رجاله
غضب الطبيعة ، ف وقعت عليهم هزيمة ، جعلتهم
ينسحبون من الميدان .

وبلغ الخليفة نبأ هزيمة عبد الملك ، فازداد غضبه ،
وعزم على أن يبعث أميراً آخر ، يلم الشمل ،
ويرتق الفتق ، ويُعيد إلى العرب هيبتهم ، وأن يسير
في الأرض يدك الحصون ، ويفتح البلاد .
كان عقبة بن الحجاج السلولى يتوق إلى الجهاد ،
ويشتاق إلى الاستشهاد في سبيل الله ، فبعثه أميراً
على الأندلس .

حصن عقبة جميع المواقع التي رأى تحصينها في
بلاد اللغدون ، حتى ضفاف نهر الرون ، وشحنها
بالمقاتلة ، ثم أغار على بلاد دوفنييه ، شمالي

« بروفانس » ، وغربى « سافوا » ، وشرقى « ليون » . واحتل المسلمون أخذاً بشار جيشهم ، الذى قهره شارل فى بلاط الشهداء ، مدينة ليون ، وبثوا الغارات منها على « بورغونية » . فعزم شارل مارتل على قتال المسلمين ، حتى يجلوا عن بلاده ، وحتى ينقطع تهديدهم له .

٤

رأى شارل مارتل أن يؤلب حكام البلاد المجاورة على المسلمين : فاستصرخ « لويتبراند » ملك اللومباردين فى إيطاليا ، ليوافيه بجيش لقتال المسلمين ؛ وسرح أخاه « شيلدبراند » بجيش إلى ليون ، فجاء شيلدبراند وحاصر المسلمين فى آفينيون ، وتبعه شارل مارتل بجيش جديد ، وجاء

لويْتبراندُ ملكُ اللُّومبارديّين بجيش جرّار من إيطاليا ،
فاستولوا على أفينيون عَنوة ، واستأصلوا من بها من
المسلمين .

وراح شارلُ مارتِل يتقدّم صوبَ أربونة ، الحصنِ
الحصينِ للمُسلمين ، وبلغَ عُقْبَةَ نَبَأِ تقدّمِ شارل ،
وتضيقهِ الحِصارِ على أربونة ، فأرسلَ جيشًا في
البحرِ لنجدةِ المحاصرين ، ووصلَ الخبرُ إلى شارل ،
فانقضَّ فجأةً على الجيشِ الوافِدِ من البحر ، فدبَّ
الهرجُ في صفوفِهم ، وسقطَ أغلبُهم صرعى ، ومن
بَقِيَ هُرِعَ إلى السُّفُنِ الرَّاسِيَةِ على الشاطئ ، يلتمِسُ
الفرار .

وعادَ شارلُ مارتِل إلى حِصارِ « أربونة » ، ولكنّه
أخفقَ في الاستيلاء عليها ، وفيما هو يُحاصِرُها

وردت الأنباء بأن السكسون قد أشعلوا نار الثورة عليه من جديد ، فاضطروا إلى رفع الحصار عن «أربونة» ، وراح يدمر في عودته القلاع والحصون ، فخرّب القلاع التي كانت في «بيزيه» ، ودمر أبواب مدينة «نيم» ، وقسمًا من الملهي الروماني ، الذي كان فيها ، خوفاً من أن يتحصن به العرب .

٥

كان «موروند» دوق مرسيليا ، وحليف العرب ، قد فرّ هارباً من وجه شارل مارتل ، وبقي مختفياً حتى غادر شارل مارتل جنوبي فرنسا ، قافلاً إلى الشمال فلما بعد شارل مارتل ظهر موروند ،

وَجَدَدَ عِلَاقَاتِهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَاحُوا يَعْمَلُونَ مَعَهُ ،
وَيُغَيِّرُونَ عَلَى بِلَادِ شَارْل .

ضَاقَ شَارْلُ تِلْكَ الْغَارَاتُ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ عَلَى
أَطْرَافِ بِلَادِهِ ، فَزَحَفَ فِي سَنَةِ ٧٣٩ م إِلَى
الْجَنُوبِ ، وَمَعَهُ أَخُوهُ ، وَهَاجَمَ مَرْسِيلِيَا ، وَاسْتَوْلَى
عَلَيْهَا ، وَبَعْدَهَا قَرَّ الْمُسْلِمُونَ فِي « أَرْبُونَةِ » ،
لَا يَجْرَءُونَ عَلَى غُبُورِ نَهْرِ الرُّون .

كَانَ الْعَرَبُ فِي الْأَنْدَلُسِ مُنْقَسِمِينَ إِلَى يَمْنِينٍ ،
وَأِلَى عَدَنَانِيَّينَ ، وَكَانَتِ الْعِدَاوَاتُ قَائِمَةً بَيْنَهُمَا ، فَلَمْ
تَقِفْ تِلْكَ الْعِدَاوَاتُ وَالْعَصِيَّةُ عِنْدَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ،
بَلْ امْتَدَّتْ إِلَى مِصْرَ وَالشَّامِ ، ثُمَّ الْأَنْدَلُسِ وَفَرَنْسَا ،
وَلَيْتَ الْأَمْرَ اقْتَصَرَ عَلَى انْشِقَاقِ الْعَرَبِ فَحَسَبَ ،
بَلْ إِنَّ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَ الْعَرَبِ يَوْمَ الْفَتْحِ ،

كانوا يُبغضون العرب جميعا ، الأمر الذى كان يدبُّ
فى جسم الدولة الجديدة كما يدبُّ السُّوس فى
الخشب .

وفى سنة ٧٣٧ م ، فى الوقت الذى كانت
الحروبُ الرَّهيبَةُ دائرةً بين عُقْبَةَ بن الحَجَّاج وشارل
مارتل ، ثار البربر على أمير إفريقيَّة ، لأنَّه عادَ
فَوَضَعَ الجزية على البربر ، بعد أن كانت قد وُضِعَتْ
عنهم . كان البربرُ أقوامًا أشدَّاء ، نشئوا على
صَهَوَاتِ الخيول ، فلم يَقُوْا أميرَ إفريقيَّة على
إخضاعهم ، فاضطُرَّ عُقْبَةُ أميرُ الأندلس أن يُجِيزَ إلى
أفريقيَّة ، لإِدخالِ البربر فى الطَّاعة . فانتَهَزَ شارلُ
مارتل فرصةَ غِيَابِ عُقْبَةَ ، وانشغاله بثورة البربر ،
وراح يُخَلِّصُ جنوبِيَّ فرنسا من أيدي العرب .

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ ، وخلفه ابنه ييبين
 القصير ، واشتغل في توطيد ملكه في شمالي فرنسا
 وجنوبها . ولاحت الفرصة للعرب ، ليجددوا
 غاراتهم على فرنسا ، ويبلغوا منها مآربهم ؛ ولكن
 شغلهم عن ذلك الشقاق الذى دب بينهم ،
 وانشغال الخلفاء الأمويين عن الأندلس بالثورات ،
 التى كانت تتوالى فى الولايات الشرقية ، فقد كانت
 دولة بنى أمية فى آخر أيامها تجود بأنفاسها الأخيرة .
 تغيرت الحال فى جنوبى فرنسا ، وخلا الجو
 للمسيحيين ، برغم ضعف ييبين وفتور همته .
 وراحت الحاميات فى نيم ، وفى بيزيه ، وفى

ماغلون ، تخفُ شيئاً فشيئاً ، وتكونت بها إداراتُ
أهليّةٌ تُديرُ شئونَها ، تتمتع باستقلالِها ، وإن كانت
تعترفُ بسلطانِ المسلمين .

وفي سنة ٧٤٧ م ، تولّى يوسفُ بنُ عبدِ الرحمنِ
الفهريُّ إمارةَ الأندلس ، فبعثَ ابنه عبدَ الرحمنِ
بجيشٍ إلى البيرائيه ، لتأديبِ الشائرين بها ، ولكنَّ
المسيحيين قاوموه بالسلاحِ مقاومةً شديدةً ، وأطمعَ
ذلك أهالي المُدنِ القريبة ، فراحوا يُعلنونَ الثورةَ على
المسلمين ، ويرفعونَ رايةَ العصيان .

وسارَ بيبين بجيشٍ إلى اللانفدون ، واستولى على
نيم وأقت وماغلون وبيزييه ، ثمَّ زحفَ لِحصارِ
أربونة ، وضيقَ عليها بجميعِ قوّاته . وطالَ الوقتُ ،
ولم تسقطْ أربونة ، فعادَ بيبين ، وأبقى جانباً من
عساكره حولها ، تحت إمرةِ أميرٍ من أمراءِ القوط .

واستدرج العربُ الأميرَ إلى كمينٍ وقتلوه ،
ووقعتْ مَجَاعَةٌ في جَنُوبِيَّ فرنسا ، عطَّلت حركاتِ
الجِيش ، فَرُفِعَ الحِصارُ عن « أربونة » .

٧

استولى أبو مسلم على خراسان ، وسرعانَ ما ثارَ
أهلُ العراقِ على الوالى من قِبَلِ الخليفةِ الأموى ،
ونُودِيَ بِأبِي العَبَّاسِ خَلِيفَةً للمسلمين ، فكان ذلك
إِذْنا بَزَوَالِ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّة ، ومطلعَ عهدِ العَبَّاسِيِّين .
وراحَ قُودُ أْبى العَبَّاسِ يَقتِفُونَ أثرَ الأمويِّين ،
ويقتُلونهم ، ويَضَعُونَ أيديهم على البلاد ، فأصبحتِ
الشَّامُ ومصرُ والمغربُ تَدينُ بالولاءِ لأبى العَبَّاسِ ،
مُؤسِّسِ الدَّولَةِ العَبَّاسِيَّة ، وتقلَّصَ ظِلُّ الأمويِّين عن

الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، وَبَلَغَتْ أَنْبَاءُ ذَلِكَ الْإِنْقِلَابِ
الْأَنْدَلُسَ ، فَبَقِيَتْ فِي حَيْرَةٍ ، تَرْقُبُ مَصِيرَهَا .

رَاحَ الْعَبَّاسِيُّونَ يَقْتُلُونَ الْأُمَوِيِّينَ فِي الشَّامِ ، وَقَدْ
أَفْلَتْ مِنْ الْقَتْلِ شَابٌّ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ ، هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
ابْنُ مُعَاوِيَةَ ، صَقَرُ قُرَيْشٍ ؛ فَانْطَلَقَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ
وَحْدَهُ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا مَوْلَاهُ بَذْرُ . وَقَدْ اسْتَطَاعَ
بَذَكَائِهِ وَدَهَائِهِ وَفِطْنَتِهِ ، أَنْ يُؤَسِّسَ فِي الْأَنْدَلُسِ
دَوْلَةً أُمَوِيَّةَ قَوِيَّةً ، وَأَنْ يُنْشِئَ فِيهَا حَضَارَةً شَامِخَةً ،
فَقَدْ كَانَ رَيْبَ مَجْدٍ ، وَمِنْ بَيْتِ سِيَادَةِ وَسُلْطَانِ .